وإخافة أهل البغى والبهتان .

ثم سأل : ماذا نقصد بكلمة « أدب » بالضبط ؟ أحسن تقدير هو أم ماذا ؟

ويبدو لنا أن الذى دعا الطالب النجيب إلى هذا السؤال ما سبق إلى فهمه من أن الأدب لا يكون إلا من صغير لكبير.

والواقع أن الأدب صفة مطلوبة فى كل معاملة ، كما نطلب فى أدب الراعى نحو الرعية ، وأدب السيد نحو الخادم ، وأدب العظيم نحو الصغير .

وأدب النبى هنا هو أدب المربى الذى يتعهد أتباعه ومريديه فيهيئ كلا منهم لما يصلح له ، ويقوى فيه ما يصلح مع القوة ، ويضعف فيه ما ليس به صلاح له ولا لغيره . ومهابة عمر إنما هى مهابة للعدل والحق والإيمان ، فمن الخير أن يبقيها له وينتظر منها النفع للدين ومعتقديه .

وفى الأسئلة بقية ترجع إلى جملة من الكلام على صفات الفاروق ، بعد رواية ما قيل عن إقامته الحد على ولده عبد الرحمن

وهذه هى الجملة : « لو كان المصدر واحداً معروفاً بالحذق فى القصص لحسبناها من وضعه وتلفيقه . ولكنها سمعت من غير مصدر موثوق به ، فهى أقرب إلى الواقع » .

والسؤال هو : أتقصد أنها سمعت من مصدر غير موثوق به أم أنها سمعت من أكثر من مصدر واحد موثوق به ؟

وعلى قدر ما كان الطالب موفقاً فى سؤاله عن المهابة خانه التوفيق فى هذه الأسئلة . فلا يمكن أن يكون المقصود مصدراً واحداً ؛ لأننا استبعدنا ذلك ، ولا يمكن أن يكون عدة مصادر غير موثوق بها ؛ لأننا نقول إنها أقرب إلى الواقع ، ولا التباس بعد هذا فى المعنى لأننا نفى وحدة المصدر ، ونفى وضعه وتلفيقه ونقول قبل ذلك عن القصة « إننا لا نستغربها فى جميع تفصيلاتها إلا حين تطرأ عليها المبالغة التى تتسرب إلى كل خبر من أخبار البطولات المشهورة ... »

وبعد ، فهو على كل حال اجتهاد يدل على حب الفهم والاسترشاد

عباس محمود العقاد

من أحاديث الزواهرى : (*)

حكمة القـــدر

للاستاذ على الطنطاوى

دخل علينا أمس ، وكنا جماعة فى المجلس صديق لنا ، فقال : إن ابنة الأستاذ حبيب زحلاوى قد سقطت من الطبقة السادسة إلى الشارع ! فارتمنا جميعاً ، وأعظمنا الخطب ، وكنا نعرفها طفلة حلوة ملء إهابها الطهر والجمال والنشاط ، فلم نستطع أن نتصورها وهى مزق من اللحم قد اختلط بعضه ببعض ، ووجمنا وكانت سكتة لم يقطعها إلا ضحك صديقنا المخبر ، فعرفنا أنها مزحة ثقيلة من مزحاته ، وأقبلنا عليه نسبه ونشتمه ، فقال : والله ما كذبت عليكم ، ولقد وقعت من الطبقة السادسة ولكنها لم تصب بشىء ، وهى سليمة ...

فصرخنا جميعاً : سليمة ؟ ! قال : نعم والله . ألا تصدقون ؟ إنها وقعت على حبال الغسيل الممدودة بين الشرفتين حيال الطبقة الخامسة ، فعاقتها قليلا ، ونفذت منها إلى حبال الطبقة الرابعة ، وما زالت تمر من حبال إلى حبال ، حتى إذا بلغت الشارع ، كانت سقطتها على كومة من الرمال ، صبتها سيارة صباح ذلك اليوم ، فلم تصب بأذى .

ومضى يحلف ويذكر الإيمان أن الذى يرويه هو الصدق والحق ، وأن صبياً لصديق آخر لا أسميه لئلا أسوءه ، وأذكره بمصابه ، وقف على مكتب أبيه يلعب ، فرأى صورة معلقة بالجدار ، فوثب يريد أن يصل إليها ، فوقع على أرض الغرفة ، وكانت من البلاط ، وكانت السقطة على يافوخه ، فمات لساعته ...

وقال معلقاً ومتفلسفاً : ففيم إذن نفكر وندبر ، ما دام لا ينفعنا فكر ولا يفيدنا تدبير ، ولم لا ندع الأمور للقدر ونتركها تجرى فى أعنتها كما يريد لها مجريها ، ما دمنا لا نملك أنفسنا ولا نعرف مصائرنا ، وما دام هذا الكون كالمعمل الضخم ،

(*) سجل فى مصر وأذيع من محطة الشرق الأدنى فى القدس .

شتبك الآلات ، المتعدد الحركات ، ومانحن إلا مسمار صغير فيه ، ير كما يسيرنا (مهندسه) الأعظم ...

وأسرع واحد منا ، فقال مصدقاً : نعم ، ولكنا خلقنا نقاء ، وأقمنا هدفاً للمصائب ، ووضعنا فى دنيا ما فيها إلا الآلام ن سلم منها اليوم وقع غداً ، ومن لم يمت ولده من سقطته مات ي علته ، أو مات وهو صحيح معافى ما من الموت بد ... ولا بد ل الموت من البلايا والمتاعب ...

وتكلم ثالث ، يرى نفسه من كبار العقلاء ، فأنكر القدر ، بعد القدر . وزعم أن الحياة ليست إلا عجينة فى يدك ، أنت رها وتصورها ، فإن صنعت منها تمثال غادة جميلة كان لك جمالها ، ن عملت منها هولة قبيحة كان عليك قبحها ... إن مرضت ي إقلالك الغذاء وإهمالك الترق ، وإن دعست[1] فمن تركك سذر ، وإن افتقرت فمن قعودك عن السعى . . . وأمثال ا الكلام .

فقلت له : فلم ولد هذا فى دار علم وتهذيب فتعلم وعرف سبل قاية ، وخطر الأمراض ، ونشأ ذاك فى بيت جهل وفساد ، ب جاهلا فاسداً ، لا يعرف كيف يتقى الداء ، ولماذا دعس ا من قلة حذره ، وسلم من هو أقل منه حذراً ، وطريقه أشد طرأ ، ولماذا يسعى الرجل حتى تنقطع من السعى أنفاسه ويرجع بصل ولا إلى مثل خفى حنين ، وتأتى الأموال لآخر بلا سعى ل طلب ؟ ...

ولماذا يتاح لهذا النابغة أن يظهر نبوغه ، حتى يكون اسمه بيعاً على كل لسان ، وعنواناً فى كل كتاب ، ويجهل من هو د منه ذكاء ، وأكبر موهبة ، وأظهر استعداداً للنبوغ ؟ .

ولماذا ؟ ولماذا ؟ وألف لماذا ؟ لو شئت لسقتها لك فما تطمت الحواب على واحد منها ، فما أنت فى الوجود ، هل تسير ت الفلك على هواك ، وهل تسوق الكون إلى غايتك . هل ت إله ؟ إلك ما كونت نفسك ، ولا شققت بيدك سمعك ل بصرك .

قال : فهل ترى أنت أن الإنسان مسير ؟ .

قلت : ما مسير ؟ وما مخير ؟ وما هذه الفلسفة الفارغة ؟ لقد ستغل بها البشر ، من يوم بدأوا يفكرون واختلفوا عليها ، عادلوط ، ولا يزالون يختلفون ويتجادلون ، لم يصلوا إلى شىء .

وإنما ناهوا فى بيداء لا أول لها ولا آخر ، وهاموا على وجوههم فى مهمه متشابه الأرجاء ، بلا أمل ولا رجاء ، فذهب هذا ينكر القدر ، ويزعم أن الحياة ملك الإنسان ، وأحدثها صنع يديه ، وراح ذاك ينكر إنسانيته ، ويجحد نفسه ويراه مسماراً فى آلة الكون ، وحجراً فى جبل ، يدور مع الأرض أنى دارت . وكان هذا متشائماً لا يرى إلا الذى وقع عن الكرسى فمات ، فاعتقد أن الدنيا دار المصائب ، وكان ذلك مغروراً ، لم يبصر إلا التى وقعت من الطبقة السادسة ولم تمت ، فحسب أنه يسلم من كل أذى .

ونحن مع القدر بشر ، لا آلهة ولا حجر ، والدنيا ليست مسرة كلها ولا مصائب ولكنها مسرة وكدر .:.

وأنا كلما فكرت ، وذكرت ما رأيت من الحوادث بعينى ازددت يقيناً بأن أكثر الناس لا يعرفون سر الإيمان بالقدر :

رأيت الترام مرة وقد انكسر مقوده ، فانحط من المنحدر الهائل عند (الجسر) فى دمشق ، وكانت امرأة واقفة بين خطيه بعد المنعطف ، فلما رأته مقبلا كالموت النازل ، سمرت رجلاها من فزعها بالأرض ، وجدت ولم يجرؤ أحد أن يدنو لإنقاذها فيموت معها ، والوقت أضيق من أن يتسع لشىء ، فأغمضوا عيونهم حتى لا يروا ... فلما وصلت الحافلة إلى المنحنى تركت الخط وسارت قُدُماً ، فصدمت جداراً من اللبن ضعيفاً ، وصرت منه إلى قوم فى دارهم فقتلتهم .

ورأيت مرة بعينى شاباً يمشون تحت فندق (إيدن بالاس) فى دمشق ، فرفع أحدهم رأسه فجأة فرأى شيئاً ساقطاً فتناوله بيديه ، وإذا هو صبى رضيع وقع من شباك الفندق ، وهبطت أمه كالمجنونة . وهى امرأة من (حماه) فرأته سالماً ..

ورأى غيرى حوادث مثل هذه الحوادث . وفى كتاب (الفرج بعد الشدة للقاضى التنوخى) مئات من القصص عمن نجا وهو فى لج الهلاك ، وفى كتاب الحياة آلاف من الأخبار عمن هلك وهو على بر النجاة .

فما سر هذه العجائب ؟ وكيف عاشت المرأة وقد فرطت وعرضت نفسها للموت بسيرها بين خطى الترام ، ومات قوم اتخذوا كل أسباب الوقاية ، فدخلوا دارهم ، وأغلقوا بابهم ، فشق الترام الحائط ودخل عليهم فدعسهم ، وكيف وقعت البنت فلم تمت ، وتموت كل يوم مئات من البنات من غير وقوع ؟ .

(١) الدعس : من العامى الفصيح .

إن هذا السر ، سر الله لا يعرفه أحد ، فلا تحاولوا كشف سر القدر ، ولكن استفيدوا من حكمة القدر . وهذا ما سمعت له حديثي .

ستقولون ، وماذا نعمل ؟ هل ندع أولادنا يسقطون من الشبابيك لا نبالي لأنها إن كانت لهم حياة فسيبعث الله لهم حبالا تمسكهم ، أو رجالا تتلقاهم ، ولنقعد عن السعي لأنه إن كان لنا رزق فسيأتينا بلا سعي ! .

لا يا سادة ، ما هـــذا طريق فهم القدر ، ولا هذه حكمة القدر .

صحيح أن الرزق مقدر ، فهذا وضع له رزقه على مكتبه ، قما عليه إلا أن يقعد على كرسيه ، ويمسك قلمه ، ويكتب اسمه الكريم كل نصف ساعة مرة على أوراق تعرض عليه ، وهو يشرب قهوته ، ويدخن دخينته ، فيأتيه الرزق ؛ وآخر وضع رزقه في رأس الجبل عليه أن يصعد إليه ، أو في بلد بعيد عليه أن يمشي إليه ، أو في باطن الأرض ينزل إليه ، أو في جوف البحر يغوص فيه ، أو في جيوب الناس يأخذه منها ، ليقبض عليه ، فيتحول رزقه إلى السجن .

كل يأكل لقمة ، ولكن من الناس من تجيئه اللقمة في صحفة من الفضة ، ومن يأكلها مغموسة بالدم ، أو مبللة بالعرق ، أو ملطخة بالوحل .

لا لانقل ما سر القدر ، فما كشفه حاجة لأحد ، ولكن ، مادام الأمر مجهولا ، فاسع أن تأكل أنت لقمتك بطبق الذهب ، وجد وابذل الجهد ، فإن لم تصل إلى ذلك وصلت إلى الرضى والتسليم بحكم القدر وهذي من حكم القدر .

والأجل محدود ، لا يدقمه إذا حضر حذر ، ولا يضر إن امتد خطر ، وقد يموت الشاب الصحيح ، ويعيش الشيخ العليل ، ويهلك المعتصم بسبعة أسوار ، ويسلم الجندي الذي يقتحم النار ، أعرف رجلا من أبطال الثورة السورية ، رمى نفسه على الموت خمسين مرة فكان الموت يروغ من تحته ويهرب منه ، ثم انتهت الثورة ، ونام في فراشه ، فاختصم إثنان من السكارى ، فأطلق أحدهما رصاص مسدسه ، فأصاب خطأ رأس صاحبنا الذي نام فما قام .

وروى ابن الجوزي أن رجلا أغمي عليه فحسبوه مات ، ونصبوه على السرير ، وجاؤوا بالمغسل ليغسله ، فلما أحس برد الماء ، تيقظ ونهض ، فارتاع المغسل وسقط ميتاً .

فلا تسأل ما السر ، ولكن جاهد في سبيل الله ، وناضل عن الحق ، ولا تخف الموت في جهادك ونضالك لأن الأجل محدود ، فقد تعيش مائة سنة ولو خضت غمرات الموت ، فاعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لأخراك كأنك ميت غداً ، فتكون قد ضمنت لنفسك الدنيا والآخرة ، وهذي حكمة من حكم القدر .

فالإيمان بالقدر حياة لأنه يفتح لك في كل ظلمة شعاع ضياء ، وفي كل عسرة باب رجاء ، ولولا الرجاء لمات المريض من وهمه قبل أن يميته المرض ، ولقتل الجندي في الحرب من خوفه قبل أن يقتله العدو ، ولولا الرجاء ما كانت الحياة .

ولو تركت الأمور لاحتمالات العقل ، وقوانين المادة ، لما استطعت أن تتنفس الهواء أو تشرب الماء خشية أن تكون فيه جرثومة داء ، ولا ركبت سيارة لاحتمال أن تصطدم ، ولاصعدت بناء لإمكان أن ينهدم ، ولما استولدت ولداً لأنه قد يموت ، ولا اتخذت خليلا لأنه قد يخون ، ولما اطمأننت على مال لأنه قد يسرق ، ولا دار لأنها قد تحرق .

والإيمان بالقدر راحة لأنه لو كان الفشل من عملك وحدك ، وكان النجاح من صنع يدك لقطعت نفسك أسفاً إن فشلت ، أو سبقت .

والإيمان بالقدر عزاء ، لأنك إن قدر عليك المصاب بولد ، فاحمد الله فقد الناس من أصيب بولدين ، وإن خسرت ألفاً ففيهم من خسر ألفين .

فهل عرفتم الآن ما حكمة القدر ؟

هي أن نجد ونعمل ونسعى ، ونبذل الجهد ، ثم لا نحزن إن فشلنا ، ولا نأس إن لم نصل إلى ما نريد وأن نكون مع القدر كمن يجتاز طريقاً فيه السيارات المزدحمات ، فإن ذكر حوادثها وأخطارها وحدها لم يستطع أن يتقدم خطوة ، وإن اعتقد من غروره أنه يستطيع أن يرد عنه السيارة القبلة ، ويدفع الخطر الآتي ، لم يسلم ، ولكن إن انتبه وسار بحذر ، فهذا هو العاقل ، ثم إن نجا حمد الله أن قدر عليه النجاة ، وإن أصيب ذكر أنه لم يقصر ، وإنما هو حكم القدر ...

(دمشق) علي الطنطاوي